على منهج الأغانى

بقلم أبى الفرج الأسكندرانى

صوت

بأبى من حرّم النـــوم على عينى وناما
بأبى من أضرم القلب اشتياقاً وهياما
فقضى الله علينـا فنزحنـــا وأقاما
أذكرى من ليس ينساك وإن لاقى الحماما
إن من نام لعمرى يحسب الناس نياما

* * *

حدثنا الأستاذ أحمد رامى قال : إن هذا الشعر للدكتور ناجى ، وفيه لحن للأستاذ محمد عبد الوهاب يضرب بكل أصابع اليدين على البيان . . .

وحدثنا الدكتور زكى مبارك قال : إن الشعر ليس للدكتور ناجى ، وإن للأستاذ رامى عذره الجلى فى نسبته إليه ؛ فالنفس الشعرى متقارب بينه وبين العباس بن الأحنف . فكلا الشاعرين من شعراء اللهفات ، تحس فى أبياته حرارة أنفاسه ، ورقة عواطفه . ولو أنى كنت قد وضعت كتاباً عن شعراء القرن الثانى ، لكان ذلك أجدى على القراء وأليق بى من كتاب « النثر الفنى » فى القرن الرابع ، ولكن الفرصة لم تفت على كل حال . وإنّ من بدأ حياته الأدبية بالكتابة عن عمر بن أبى ربيعة ، لجدير بأن يجعل للعباس بن الأحنف موضعاً فى حياته الطويلة المباركة ، إن شاء الله .

قال أبو الفرج : وهذا وعد ننتظر من الدكتور زكى مبارك وفاءه . ولقد عجبنا من إيثاره « الشريف الرضى » على العباس بتصنيفه كتاباً عنه أثناء إقامته فى بغداد ! فالشريف وإن جلّ قدره شاعراً ، وسمت مكانته رجلاً ، فإن العباس أشبه بأن يكتب عنه الدكتور زكى مبارك طبيب « ليلى المريضة فى العراق » . أو لعل اسمها ليلى العريقة فى المراض ، كما يزعم بعض الناس .

الدكتور ابراهيم ناجى وأخباره :

حدثنا الأستاذ صالح جودت قال : إن الدكتور ناجى غضب من نسبة رامى إليه هذه الأبيات وقال : إن فيها تحريفاً ، فصحة البيت الثانى :

بأبى من أضرم القلب اشتياقاً واهتياما

وصحة البيت الثالث :

فقضى الله علينا فشحطنا وأقاما

قال الدكتور ناجى : ولست أنا بالذى يقول : « اهتيام » و « شحط » ؛ ولا بالذى يبدأ البيت بقول « بأبى » فهذه لغة أستسيغها منسوبة إلى أبناء عصرها ، ولكنى لا أقبلها من أبناء عصرى . ولقد كان العباس رقيقاً دمثاً لما قال شحط ، ولم يقل افترقع ؛ وقد كانت الكلمة الثانية تقال فى عصره ، فعمد إلى أرق الكلمتين . ولكن عصرنا فيه ما هو أرق وأعذب وأصدق فى التعبير عن خوالجنا المهذبة ؛ ولكن رامى (عفا الله عنه) ينسب لى من شعر القدماء ليرمينى بالعدول عن مذاهب المجدّدين ، وسأحاربه هو وأمثاله بمثل هذا السلاح حتى يستقيموا . ثم أنشد :

لأروين لهم من غير قولهم حتى أجدد فيهم عهد حماد

قال أبو الفرج الاسكندرانى : والغريب أن الدكتور ناجى يذكر أحد الحمادين ، ويتهدد بأن يسلك مسالكهم ، ولا يرى أنه بذلك قد « شحط » عن التجديد . ولقد همّ أبو الفرج بأن يبدى هذه الملاحظة ، ولكنه خشى أن يؤخذ بها لو أذاعها . فإنه هو أيضاً يعارض كتاب الأغانى وينتحل لنفسه لقب : « أبى الفرج »

قال الدكتور زكى مبارك ، وقد أدرك لفطنته ما جال بخلد الاسكندرانى وإن لم يقله : لاعليك من ذلك ، فالتجديد لا يكون إلا من الراسخين فى العلم بالقديم . وهذا مارتن لوثر ما استطاع إنشاء المذهب البروتستانتى إلا لأنه كان قسيساً كاثوليكياً ، وإننى ما أنشأت مذهب البروتستانتية فى الأدب العربى إلا لأنى أزهرى

حدثنا الدكتور زكى أبو شادى ... بل لم يحدثنا بشىء لأنه صاحب مجلة تتعرض للناس بالسوء .

وحدثنا صالح جودت قال : إن حماداً الذى يذكره الدكتور ابرهيم ناجى فى قوله .

لأروين لهم من غير قولهمو حتى أجدد فيهم عهد حماد

ليس أحد الحمادين الذين يشير إليهم الدكتور زكى مبارك ، ولكنه الأستاذ محمد على حماد محرر مجلة (الشعلة) فهو أقرب إلى خيال ناجى من هؤلاء الذين علت ذكرياتهم طبقات من غبار القرون . وما كان لناجى ولا لأحد منا نحن المجددين أن يلتفت هذا الالتفات . فنحن إنما نستمد الوحى الشعرى من الحياة لا من الكتابة عن الحياة ، ولا من الكتابة عن الكتابة عن الحياة .

نحن نذكر حماد الشعلة لأننا نراه ونتصل به عن طريق الحواس ، وهي صلة الفنان بالحياة ؛ ولكننا لا نكتب عن العباسيين لأننا لا نتصل بهم إلا عن طريق الكتب ... والكتب نؤلفها نحن ويقرؤها غيرنا ... إلا أن تكون بالطبع كتباً أجنبية ، فدراسة ناجي لشكسبير أمر معقول ، وليس كذلك ما كان قد يفعله لو لم يكن مجدداً فيدرس من يقولون إنهم أشباهه كابن الدمينة والعباس بن الأحنف .

قال الدكتور زكي مبارك : هذا بعض الفوارق بيني وبين ناجي ومدرسته الحديثة . فأنا منطيق ولا أرى كلام صالح يتمشى مع المنطق . أنا أدرس الحياة في حاضرها عن طريق الحس ، وأدرس ماضيها عن طريق الدرس والخيال ، وأدرس مستقبلها عن طريق التنويم المغناطيسي . ولقد أفدت من التنويم وما يتصل به من الدراسات أن صار في وسعي تعرف ما يجول بنفس محدثي من الأفكار والخواطر . وليس ذلك مجرد ذكاء ، وإن كنت ذكياً وزكياً بالذال والزاي ، ولكن عن طريق العلم والدرس . ولن تمر غير أشهر قلائل ، فأجوز امتحان الدكتوراه للمرة الرابعة ولكنها ستكون في هذه المرة في « المازمارتيزم » وسيكون في استطاعتي أن أتعرف ما في الكتب دون أن أقرأها . فأكتب عن الشافعي مرة أخرى دون أن أعيد قراءة كتاب الأم ، وأنقد شعر السيد الحميري ، وإن كان شعره قد ضاع .

عود الى حياة الدكتور ناجي

هو زعيم المدرسة الحديثة ؛ ولهذه المدرسة طلبة وفيها مدرسون ولكن ليس لها دراسة ولا موضوع قابل للدرس . ولكن في التعليقات الشفوية المتفرقة على قصائد الشعراء المعاصرين مادة لو جمعت لكانت موضوعاً طريفاً لها . وهذا بعض ما سنتناوله في هذا الكتاب

وسنتبع طريقة أبي الفرج الأصفهاني في تحقيق الرواية والإسناد . ولن نخترع ولن نلفق إلا أن يكون ذلك من مستلزمات الكتابة . وكذلك كان يفعل الأصفهاني

ولقد ننسب إلى شاعر من غير شعره لأنه كان الواجب أن يقول هذا ، فإن حاد عن هذا الواجب فالذنب ذنبه هو ولا علينا أن نؤكد صدق الرواية . وسنضرب المثل المقنع بأن لنا الحق كله في ذلك

تتلخص الفكرة العامة لآراء المدرسة الحديثة في هذه النظرية : ما دمنا مجددين في اللغة العربية فالاقتباس عن الغرب تجديد لأنه في لغتنا سيكون جديداً . ولكن محاكاة العرب محرمة لأنها تكرار لما في هذه اللغة

إنهم لا يقولون ذلك ولكن أحسب هذا هو الذي يجب أن يقولوه . أما وقد قالوا غيره فالذنب عليهم ، وما دمت أدون آراءهم فهذه هي آراؤهم . أما الذي يقولونه فهو أنهم إنما يرون الجديد جديداً بصدوره عن انفعال نفسي جديد ، وهم لذلك يزعمون أنهم ينكرون الاقتباس من الأدب الغربي كما ينكرون محاكاة العرب الأقدمين

ولكن الأمر لا يقف عند هذا بل حياة هذا الجيل مقتبسة من الحياة الغربية إلى حد كبير ؛ فالاقتباس عن الغرب في الحياة ينشئ في الأدب اقتباساً أصيلاً لا يتنافى مع التجديد . وبذلك لا يختلف ما قلته عنهم في حقيقته مع ما يقولون ، ولكن الذي ينكرونه من الاعراب عن الرأي الذي يدينون به يبيح محاكاة العرب والاقتباس من الغرب وعليهم القول وعليّ التوضيح

استطراد في الغرض من هذا الكتاب

وقبل أن نستأنف التحدث عن حياة الدكتور ناجي وشعره نقول إن أبا الفرج الأصفهاني كان يذكر شاعراً والموسيقار الذي لحن له . هذا في بعض العصور ، وفي عصر آخر يذكر شاعراً ومن وقف الشاعر نفسه على مدحه أو هجوه ، وفي عصر ثالث يذكر شاعراً وراويته ، وفي عصر رابع يذكر شاعراً والأمير الذي يتولى رعايته أو يتولى خصومته

هذا بأن الشاعر في بعض هذه العصور كان يخشى على شعره من النسيان فيتخذ راوية . وفي عصر آخر كان لا يستطيع الحياة إلا في كنف أمير ، وفي عصر ثالث لا يستطيع الحياة إلا مناوئاً مشاغباً ، وهو في كل العصور على السواء محتاج إلى من يضع له ألحاناً لشعره ، لأن الشعر غناء قبل كل شيء .

من أجل ذلك رأيت أن الشعراء المعاصرين ليسوا في حاجة إلى راوية فحسبهم من الرواية المطابع ، وليسوا في حاجة إلى من يحميهم فللشعوب الآن ما كان للأمراء في سالف الزمان ، ولكن الذي يحتاج إليه الشاعر المعاصر هو الناقد النزيه .

ولقد وجدت بحمد الله هذا الناقد فسأذكر تاريخ شعرائنا وشعراء الأقطار العربية مشفوعاً بتاريخ ناقده وبنقده إياه . ومشفوعاً كذلك بتاريخ الموسيقار الذي لحن له .

عود الى حياة الدكتور ناجي

هو طبيب متأثر بالثقافتين الانكليزية والفرنسية عصبي المزاج ثائر الأعصاب مرهف الحس يكلمك فيهتز جسمه كله حماسة وشدة اقتناع

قضت حرفته بأن يكافح الموت فى كل مريض وهو واسع الرجاء واسع الأمل . فرسالته فى الأدب لا يمكن أن تكون كرسالة أدباء الهند فى العصر الحاضر رسالة إذعان وتسليم . وعلى رغم الأمل والرجاء المستفادين من حرفة الطب فلا يستطيع أن يخلص من أثر المشاهدة للمريض والمكافحة للمرض . وإذا كان السيد يحاكى المسود كما يقول الاجتماعيون فشعر الدكتور ناجى فى ساعة إخلاده إلى نفسه واستجماعه ألوان تأثره — شعره هذا يحاكى أنين مرضاه وتوجعهم

نوع الشعور الذى يبشر به هذا الطبيب الشاعر هو التفريج عن الهم بالتعبير عنه

لذلك يعنيه صدق التعبير وهو من أدق الشعراء المعاصرين إيرازاً للفكرة محدودة بحدودها فى تصوره ، فليس فى شرح شعره مجال للتأويل وليس فيه شىء من الغموض . ولكن مجال الحياة التى ينظر إليها وينقدها مجال شديد الضيق ؛ وفى نفس ناجى ثورة مكبوتة منشؤها أنه لم يقل كل مايريد أن يقول . فهو مع أمانته فى الإفضاء عما شعر به فيما قال لا يزال يختزن الكثير من التجاريب والمشاعر ويمنعه حرصه على صدق الأداء أن يقول اللفظ حائماً حول معناه أو قريباً منه أو شبيهاً به فيفرج عن نفسه بوسيلة ما بالتعبير عنها . وسيظل هذا الكبت ما دام محترفاً حرفة الطب التى تشغل الوقت كله والفكر كله ، ولكنها لا تشغل كل المشاعر

هذا ما يقوله ناقده عنه وناقده هو الدكتور زكى مبارك فإن لم يكنه فقد كان الواجب أن يكونه أما ملحنه فهو الشاعر الموسيقار صالح جودت

صوت

ليلى العريقة فى المراض بيضاء شاحبة البياض
مصفرة العينين تذ قل بالدلال وبالتغاضى
مكنونة ليست تعد من الطوال ولا العراض
فإذا رأيت ذبولها أبصرت نرجسة الرياض
وإذا سمعت أنينها شاقتك ضفدعة الحياض
أصغى فيبعث صوتها كل انشراحى وانقباضى

الشعر للدكتور ناجى وفيه لحنان أحدهما لم يسمع قط ، والآخر لم يصنع بعد : وكلاهما من صنعة الأستاذ صالح جودت .

« يتبع »

عبد اللطيف النشار